خطبة صلاة الجمعة 12/ 10/ 2018 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(كيف أنجو من الفتن؟)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:٨٣].

قال ابن كثير: هم الشباب.

أخرج الحاكم والبيهقي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»**.

هذه هي الخطبة الثالثة عشرة في سلسلة (هموم الشباب)

وعنوان الخطبة: **كيف أنجو من الفتن؟**

أيها الإخوة:

الفتنة هي الابتلاء والامتحان والاختبار، تقول: فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته.

وتكون الفتنة بالمال حيناً وبالأولاد حيناً، وبالشهوات أو الشبهات حيناً، وبالأمراض أو المخوفات حيناً، وبثناء الناس وذمهم حيناً، وبالمنع والعطاء حيناً؛ وبالخير والشر حيناً؛ قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35].

يمتحن الله بذلك عباده ليميز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، والصالح من الطالح، ولولا الامتحان والاختبار والفتنة لاستوى المحسن والمسيء والعامل والخامل.

يسمع الشاب المؤمن آيات القرآن الكريم تقول: ﴿الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 1 – 3]

يقرأ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: 11] ويتفكر في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 28] فيهتم لذلك ويسأل كيف أنجو من الفتن، وكيف يسلم لي ديني فيها؟

وللجواب على هذا السؤال أقول: خمسة أمور بها تسلم من الفتن.

أولها: اللجأ إلى الله تعالى والضراعة إليه والاستعاذة به:

فالخير بيد الله تعالى، والشكوى إليه، والعون منه، والأمر إليه. ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: 50]

قال العلماء: (وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس، فلا يرى لنفسه حالاً ولا مقاماً ولا سبباً يتعلق به، ولا وسيلة منه يمنُّ بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف والإفلاس المحض، دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه، حتى وصلت تلك الكسرة سويداءه فانصدع، وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربه وكمال فاقته وفقره إليه).

روى الإمام مسلم بإسناده عن زيد بن ثابت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن»** فقالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«استعيذوا بالله من فتنة المحيا والممات»**

وعنه رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر، فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجال»**.

وهذا سيدنا يوسف عليه السلام تُعرَض عليه فتنة امرأة العزيز فيضرع بين يدي ربه يقول: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: 33، 34].

فأول ما ينجو به المرء من الفتن الالتجاء إلى الله والاستعاذة به والضراعة إليه.

فوالله لولا الله يُسعد عبده ... بتوفيقه، والله بالعبد أرحم

لما ثبت الإيمان يومًا بقلبه ... على هذه العِلاتِ والأمرُ أعظمُ

ثانيها: الرجوع إلى الكتاب والسنة للبحث فيهما عن طريقة الخروج من الفتن:

روى الترمذي وغيره عن علي رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**أَلاَ إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ**»، فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**كِتَابُ اللهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ**»

وفي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه الصحيح المشهور قال صلى الله عليه وسلم: «**فإنه من يعش منكم فيسرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ**».

فمن امتُحن بالمال قلة وكثرة فليذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**والله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**». [البخاري].

ومن امتحن بالأوجاع والأمراض فليذكر قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ(42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 41، 44].

ومن أصابه أذى الناس فليذكر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 97 - 99] ، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا

تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: 34 - 36] وهكذا يرجع المرء إلى كتاب الله وسنة رسوله يبحث فيهما عن طريقة الخروج من الفتنة.

ثالثها: الموازنة بين المصالح والمفاسد والنظر في عواقب الأمور:

فقد ذكر العلماء أن إنكار المنكر أربع درجات:

الأولى: أن يزول ويخلفه ضده.

الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى بمكة قبل الفتح أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها؛ لأن في تغييرها فتح باب منكر أكبر من قتل وتشريد.

فالموازنة بين المصلحة والمفسدة والنظر في عاقبة الأمر يعينك على النجاة من الفتن.

بل لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عزم النبي صلى الله عليه وسلم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بكفر، ففي الصحيح عن عائشة قالت: «سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الحجر: أمن البيت هو؟ قال: نعم، قلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟ قال: إن قومك قصرت بهم النفقة، قلت: فما شأن بابه مرتفعا؟ قال: فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا، ويمنعوا من شاؤوا، لولا أن قومك حديثٌ عهدُهم بجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أُخرجَ منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين: باباً شرقياً، وباباً غربياً، فبلغت به أساس إبراهيم».

فهاهنا يوازن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مصلحة إعادة البيت إلى قواعد إبراهيم ومفسدة إنكار الناس وقلقلتهم بسبب حداثة إسلامهم، ولما رأى المفسدة المتوقعة أكبر من المصلحة ترك المصلحة الأقل لدفع مفسدة أكبر.

فالموازنة بين المصالح والمفاسد في الأوقات عامة وفي الفتن خاصة والنظر في عواقب الأمور تعين على النجاة من الفتن.

رابعها: الانشغال بالعبادة عند الفتن ولزوم التقوى:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**». [البخاري].

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**العبادة في الهرج كهجرة إلي**» [مسلم].

قال النووي رحمه الله: (المراد بالهرج هنا: الفتنة واختلاط أمور الناس، وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفُلون عنها ويشتغلون عنها ولا يتفرغ لها إلا الأفراد).

وعن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً فزعاً يقول: «**سبحان الله، ماذا أنزل الله من الخزائن، وماذا أنزل من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات – يريد أزواجه – لكي يصلين؟ رب كاسية في الدنيا عاريةٌ في الآخرة**». [البخاري].

فالانشغال بالعبادة والانضباط بالتقوى منج من الفتن.

قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186]

خامسها والأخير: مخالفة الهوى وحفظ اللسان وعدم الانطلاق مع الانفعالات:

روى أبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ستكون فتنة صماء بكماء عمياء من أشرف لها استشرفت له، وإشراف اللسان فيها كوقع السيف**».

قال حماد بنُ زيد: سئل أيوب السختياني عن مسألةٍ فسكتْ فقالَ الرجلُ: يا أبا بكر لم تفهم أعيدُ عليكَ؟ قال: فقال أيوب: قد فهمتُ، ولكني أفكرُ كيفَ أجيبك.

وقال ابن دقيق العيد: (ما تكلمتُ بكلمةٍ ولا فعلتُ فعلاً إلا أعددتُ لذلك جواباً بين يدي الله تعالى)

وبعد أيها الشباب:

هذا واحد من همومكم كيف أنجو من الفتن؟ وهذا جوابي لكم عليه. اللجأ إلى الله تعالى والاستعاذة به، الاعتصام بالكتاب والسنة، الموازنة بين المصالح والمفاسد والنظر في عواقب الأمور، الانشغال بالعبادة ولزوم التقوى، مخالفة الهوى وحفظ اللسان.

اللهم إنا نعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات.

والحمد لله رب العالمين